رأي في ألقاب الموشحة ونشأة فن التوشيح

للدكتور عبد البصير عبد الله حسين

يقول ابن سناء الملك فى كتابه (دار الطراز) عند حديثه عن الموشح : « وهو يتألف فى الاكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له التام ،» وفى الاقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له الاقرع ، فالتام ما ابتدىء فيه بالاقفال ، والاقرع ما ابتدىء فيه بالابيات » (١) .

وواضح من هذا النص أن ابن سناء الملك يطلق على الوحدة الأولى من الموشح التام قفلا : ويطلق على الوحدة الثانية منه بيتا ، أما الموشح الأقرع فان القفل الاول يسقط منه ، ويبدأ فيه بالبيت رأسا . .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته : « وأما أهل الاندلس لما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا سموه الموشح ينظمونه أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا .. » (٢)

ويمكن أن يفهم من كلام ابن خلدون انه يطلق على الوحدة الاولى من الموشح التام كلمة سمط ، ويطلق على الوحدة الثانية منه كلمة غصن ، ويطلق على مجموع السمط والغصن كلمة بيت .

وغير خاف أن العلامة ابن خلدون لم يحدد مواقع هذه المصطلحات تحديدا دقيقاً ولم يعين مسمياتها تعيينا قاطعا ، فلم يقل لنا أين موقع السمط بالدقة .. وأين

١ ـ دار الطراز ص ٢٥ ٢ ـ المقدمة ص ٣٩٠

موقع الغصن بالتأكيد . وما عدد الاسماط والاغصان التي تسمى بيتا .. ولكن مما يرجح ما سبق أن قورناه سياق الترتيب الذى ذكر به ابن خلدون الأسماط والأغصان . وهو رجل صاحب عقلية علمية . فلابد أن يكون لهذا الترتيب فى ذهنه قصد مقصود . أما المتعدد منها الذى يمكن ان يسمى بيتا فيصدق على مجموع الغصن والسمط صدقا عقليا وصدقا فنيا . وغير خاف كذلك أن ابن خلدون حين يطلق كلمة موشح من غير تحديد . فالاقرب إلى الفهم أنه يقصد به الموشح النموذجي الكامل : أى التام ..

وعندما نرجع إلى (ذخيرة) ابن بسام نجده يذكر فى معرض حديثه عن الموشحات مصطلحين : هما المراكيز والاغصان (١) .

ويمكن أن يفهم من كلامه انه يطلق على الوحدة الاولى من الموشح كلمة المركز ويطلق على الوحدة الثانية منه كلمة الغصن ..

يقول ابن بسام فى معرض حديثه عن الصورة الاولى للموشحة فى طورها الاول متحدثا عمن عسى أن يكون قد اخترع هذا الفن : « كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويصنع عليه الموشحة من غير تضمين ولا أغصان ... » (٢) .

وجدير بالذكر أن اللفظ العامى أو العجمى الذى يشير اليه ابن بسام كانت تتضمنه الوحدة التي ينتهى بها الموشح وهى ما سماه بالمركز . ويناظرها فنيا الوحدة التي يبدأ بها الموشح التام ، وما يماثلها فى سائره مما ينطبق عليه نفس المصطلح . اما الاغصان فقد ظهرت فى الموشح متأخرة .. كما هو واضح من نص ابن بسام فى كتاب الذخيرة .. وهى بالضرورة ما سيطلق من بعد على الوحدة الثانية .

ثم يجىء الابشيهى فيطلق على مجموع الوحدتين كلمة دور (٣) ويطلق ابن سناء الملك وغيره لفظ الخرجة على الوحدة التي يختم بها الموشح ..

---

١ ـ الذخيرة من اول ج ١ ص ١ ـ ٢

٢ ـ نفس المصدر ٣ ـ المستطرف ج ٢ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩

وهكذا يتبين لنا ان الوحدة التي يبدأ بها الموشح التام يطلق عليها ابن سناء الملك قفلا ، ويطلق عليها ابن خلدون سمطا ، وينسحب عليها عند ابن بسام كلمة مركز . والوحـدة الثانية من الموشح التام يطلق عليها ابن سناء الملك بيتا . ويطلق عليها ابن خلدون وابن بسام غصنا .

ومجموع الوحدتين يطلق عليه ابن خلدون بيتا ، ويطلق عليه الابشيهى دورا .
أما الوحدة التي ينتهى بها الموشح فهى المركز الاساسي عند ابن بسام . وهى الخرجة الختامية عند ابن سناء الملك وغيره .

تلك هى المصطلحات التي التقطناها من المصادر ، والتي يمكن ان نقول بصددها ان السابقين قد اطلقوها على أجزاء الموشح ووحداته .

ونحن لن نجد شيئا من الوفاق فى هذه الالقاب جميعا الا فى حالة واحدة : هى اجتماع ابن خلدون وابن بسام على اطلاق كلمة غصن على الوحدة الثانية من الموشح التام . وفيما عدا ذلك فكل واحد يذهب فى طريق . بل قد يذهب الخلاف إلى درجة التضارب فى بعض الالقاب فان ابن خلدون مثلا يطلق كلمة بيت على مجموع الوحدتين . فيجيء ابن سناء الملك ويخص الوحدة الثانية بهذا اللقب .

اما اطلاق اكثر من لقب على الوحدة فيتضح من اطلاق القاب : سمط وقفل ومركز على الوحدة الاولى من التام ، واطلاق غصن وبيت على الوحدة الثانية منه واطلاق دور وبيت على مجموع الوحدتين واطلاق خرجة ومركز على الوحدة الختامية منه .

واذا كان من حقنا ان نفاضل بين هذه الالقاب ، ونوحد بين ما اختلف منها لفظا واتحد مدلولا ، فاننا نؤثر كلمة الاقفال فى مدلولها على الوحدة الاولى وما يناظرها من الموشح التام على كلمتى الاسماط والمراكيز ، لانها دقيقة الانطباق على موضعها :

فالقفل مدخل الباب وأوله ، والمتسلط على ما فى داخله . وكل هذا ينطبق

على مدلول هذا الجزء من الموشح ، لانه متلائم النظم مطردها مغلق البنيان على وزن خاص وقافية خاصة يلتزم بهما في كل أدوار الموشحة ..

حقا ان كلمة المراكيز تفيد أهمية هذه الاجزاء التي ينطبق عليها مدلولها ، وان سائر الموشحة ترتكز عليها وتلتزم فنيتها منها ، فهي من هذه الوجهة لاتقل دقة عن كلمة الاقفال . غير أن كلمة الاقفال قد غلبتها في الشيوع والدوران على الالسنة ، فهي من اجل ذلك احق بهذا الامر وأجدر .

أما كلمة الاسماط فهي كلمة شاعرية حلوة . ولكن يبدو لي انها غير دقيقة في مدلولها من الموشح . فالسمط هو العقد ، والعقد يطلق على هيئة متكاملة النظام ، ولا يطلق على جزء منها . ألا ترى أن أبا زيد القرشي اطلق على معلقات العرب لفظ السموط ، فجعل كل معلقة سمطا (١) .

ونؤثر كلمة الاغصان في دلالتها على الوحدة الثانية وما يناظرها من الموشح التام على كلمة الابيات ، لدلالتها الدقيقة على ما يلي الاقفال من منظومة مباينة لها تشبه الأفنان المتفرعة عنها . ثم لئلا نخلط بين ألقاب الموشح وألقاب القصيدة . فضلا عن كون كلمة الاغصان لفظة شاعرية حلوة الوقع ، فنؤثر كلمة دور في اطلاقه على مجموع الوحدتين من الموشح على كلمة بيت لان هذا اللقب يشعر بعملية التكامل والانسجام بين الغصن والقفل التي تنتهي بها دورة من الموشح لتبدأ أخرى ، ثم لنباعد بين مصطلحات الموشح والقصيد ، كما سبق ان اشرنا .

أما إطلاق كلمة الخرجة على القفل الاخير من الموشح فهو دقيق في موضعه . ذلك أن الخرجة تشبه لحن الختام المميز ، الذى قد يخرج به الوشاح عن الالف والعادة وقد يفجأ السامعين فيه بمالا يتوقعونه . وهذا هو سر ما يصفون به الخرجة من ظرف وطرافة . اذ لابد في الخرجة الناجحة من خروج ، قد تخرج بعاميتها على الفصحى ، او تخرج بعجميتها على العربية . بل امعانا في الخروج يشترطون في الخرجة اذا

١ – تاريخ النقد الادبي عند العرب : طه ابراهيم ص ٢٤

كانت أعجمية أن يكون لفظها عاميا سفسافا فى لغته الاصلية . بل ان الموشحة كلها قد تكون منظومة من اجل الخرجة ، يقول صاحب دار الطراز : « هى ابزار الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنبره ، وهى العاقبة وينبغى أن تكون حميدة والخاتمة بل السابقة ، لانها التي ينبغي أن يسبق اليها الخاطر ، ويعملها من ينظم الموشح فى الاول وقبل ان يتقيد بوزن أو قافية .. (١)

واذا كان القفل الاخير من الموشح يطلق عليه كلمة خرجة لما تؤذن به من خروج ، فلا بأس من أن يطلق على القفل الاول منه كلمة مذهب لما يؤذن به فى البدء من مذهب الوشاح الذى سيلتزم به فى سائر موشحه .

ولا يصح أن يطلق على القفل الاول كلمة مطلع حتّى لانقع فى الخلط بين ألقاب فنون الشعر . كما لايصح أن نطلق على أى جزء من اجزاء القفل أو الغصن كلمة شطر أو فقرة حتّى لانقع فى المحظور نفسه . بل من الممكن أن نطلق كلمة جزء التي استعملها ابن سناء الملك فعلا ، ونطلق كلمة جزئية على ما يتركب منه الجزء .

تلك هى الالقاب التي ارتضيناها بعد المعاودة والمراجعة ، معتمدين على ما أورد القدماء فى المصادر ، محاولين المباعدة بين مصطلحات الموشح وبين مصطلحات غيره من فنون القول ولم نبح لأنفسنا ان نضع لقبا ، وفى التراث ما يغني غناءه ولا أن نضع لقباً في غير ما وضعه له واضعوه ، أو أن نعمل فى عمل السابقين طريق المصادرة والرد . وإنما أبحنا لانفسنا فقط المفاضلة بين الالقاب التي وضعوها بعد درس وتحليل وموازنة .

وبعد : فمن أول من قام بمحاولة فى فن التوشيح .. ؟

يجيب على ذلك ابن بسام فى كتابه « الذخيرة » فيقول : « وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغني محمد بن محمود القبرى الضرير (٢)

---

١ ـ دار الطراز ص ٣٣   ٢ ـ الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١

ولكنه يعود فيقول مرة أخرى فى كتابه المذكور : « وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد اول من سبق إلى هذا النوع عندنا .. (١) .

أما ابن خلدون فى مقدمته فينقل عن ابن سعيد فى كتابه « المقتطف » فى رواية له عن الحجارى صاحب « المسهب » .. فيقول فى صدد حديثه عن الموشحات : « وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافى القبرى وأخذ عنه أبو عمر أحمد بن عبد ربه صاحب « العقد » . (٢)

وواضح أن روايتي ابن بسام مسوقتان فى صيغة الشك . لذلك فان اكثر الدارسين يرجحون رواية ابن خلدون . وهناك من راقته رواية ابن بسام الاولى ، مفترضا أن التكسب كان من وراء ظهور الموشحات ، وهو ما يتفق مع حالة شاعر ضرير ، ولكنه فرض ضعيف ، لان التكسب لم يتوقف على العمى فى تاريخ الشعر العربي .

وقد وهم بعض الباحثين فظن ان مقدم بن معافى القبرى الذى ورد فى رواية ابن خلدون هو نفسه محمد بن محمود القبرى الذى ورد فى رواية ابن بسام ، وأن التحريف قد وقع فى الاسم ، وأن الاسمين لمسمى واحد .

ولكن العالم المحقق الدكتور عبد العزيز الاهواني قد فصل فى هذه القضية فى بحث قيم نشره فى « مجلة الأندلس » التي تصدر بمدريد عن مدرسة المستشرقين الاسبان أثبت فيه أن الشاعرين الاندلسيين المنسوبين إلى قرية « قبرة » معروفان . وأن لهما تراجم مدونة فى كتب الطبقات الاندلسية ، وأن هناك نصا فى كتاب « المزية » لدين خاتمة يثبت روايتي ابن بسام وابن خلدون . وقد نقل عنه المقرى فى كتابه « أزهار الرياض) (٣)

ومهما يكن من خـــلاف فانه من المؤكد أن أولية فن التوشيح قد نسبت فى

---

١ ـ نفس المرجع
٢ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٥
٣ ـ مجلة الاندلس .

المصادر الاندلسية إلى شاعر من قرية « قبرة » الواقعة على مقربة من « قرطبة » وأن هذا الشاعر قد أدرك أيام الامير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث الهجرى ، بغض النظر عن صحة هذه النسبة او عدم صحتها .

ولكن هل فن التوشيح عربى النشأة .. ؟

لقد ثبت أن العرب فى المشرق عرفوا منذ صدر الدولة العباسية لونا من الشعر تتعدد فيه القوافي يتمثل فى « المسمطات » و « الرباعيات » و « المزدوجات » .. وقالوا : ان أول من نظم المزدوج بشار ثم تبعه أبان بن عبد الحميد وابو العتاهية كما ثبت كذلك أن العرب فى المشرق نظموا فى أوزان مستحدثة خارجة عن مألوف القصيد — وقد فعل ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو العتاهية .

لذلك رأى المستشرق « هارتمان » أن فن التوشيح فى الاندلس كان تطويرا لفن التسميط فى المشرق . ويوافقه على ذلك « فرايتاج » ، وقريب منه رأى « نيكل» الذى يؤكد عروبة هذا الفن الجميل ، ويؤكد تأثر شعـــراء « التروبادور » به فى أوربا .

وهناك من يرى أن فن التوشيح ينحدر عن روافد أجنبية : وأقوى هذه الاصوات صوت المستشرق الاسباني « خليان ريبيرا » الذى يفترض أن هذا الفن قد يكون صدى لاغان « رومانثية » أو « جليقية » ضاعت أصداؤها مع الزمن ، كان يترنم بها الشعب الاسباني . وردد هذه المقولة « جارثيا جومث » و « جونثالث بالنثيا » و « منندث بيدال » ، وقـــريب من هذا رأى المستشرق « جب » الذى يظن أن موشحات الاندلسيين ترجع إلى أصول اسبانية وبروفنسية متأثرة بتراتيل كنيسية . وقد ردد البستاني بعض هذه الاصداء ، حينما زعم ان الموشحات الاندلسية واشعار « التروبادور » ترجع إلى أصل واحد هو أغانى « الجونكليز الغاليين » (١)

---

١ ـ فن التوشيح ص ١٠٠ـ١١٠

ومنطلق هذه الفروض ينحدر من منطق خاطىء : هو أن الاوزان التي نظمت عليها الموشحات ليست عربية ، اعتمادا على نص فى ذخيرة ابن بسام يقول فيه عن موسيقى الموشحات : « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان ، اذ اكثرها على غير أعاريض أشعار العرب» (١)

وعلى نص فى « دار الطراز » لابن سناء ، جاء فيه « والموشحات تنقسم قسمين : الاول ماجاء على أوزان اشعار العرب ، والثاني مالا وزن له فيها ، ولا المام له بها . (٢)

ذلك ان ابن بسام وابن سناء كليهما يقصدان أن من الموشحات ماجاء على أعاريض العرب المستعملة ومنها ما جاء على أعاريض العرب المهملة . (٣)

ويزعم المستشرق الاسباني « ملياس فيليكروسا » المتخصص فى الدراسات العبرية ، أن فن التوشيح متأثر النشأة ببعض الاناشيد اليهودية التي كان يرتلها اليهود فى معابدهم بالاندلس .

وهو رأى مستبعد تماما .. لانه لا يتصور أن مسلمى الاندلس المعروفين بالمحافظة الشديدة يتأثرون بشىء يتصل بالعقيدة اليهودية (٤)

ويرى الدكتور عبد العزيز الاهوانى صاحب كتاب « الزجل فى الاندلس » أن فن التوشيح قد بنى على أغان اندلسية محلية ، وأن هذه الأغاني لم تكن بالعربية وحدها ولا بالرومانثية وحدها ، وانما كانت مصوغة فى لهجة شعبية تجمع فى نسيجها بين العامية العربية والعامية اللاتينية التي تسمى بالرومانثى . (٥)

ولاشك أن لهذا الرأى وجاهته وقوته العلمية ، لانه يقوم على أسس من قواعد الاجتماع البشرى .

ولكنني أذهب إلى أبعد من ذلك ، معتمدا على قوانين الاجتماع ايضا ، فأزعم

---

١ ـ الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢ .
٢ ـ دار الطراز ص ٣٦
٣ ـ عصر المرابطين والموحدين ص ٢٢٦ للدكتور احسان عباس .
٤ ـ د . هيكل : الادب الاندلسي ص ١٥١
٥ ـ الزجل في الاندلس ص ٣

أن الموشحات لم تعتمد على اغنيات أندلسية محلية فحسب ، ولكنها كانت فى نشأتها الأولى أغنيات أندلسية شعبية ، مصوغة فى هذه العامية الاندلسية ، التي هى مزيج من العربية والرومانثية ، خاضعة للذوق العربي فى الأوزان والموسيقى . ولم يكن مقدم ابن معافى أو محمد بن محمود مخترعا لهذا الفن ، ومن الطبيعي ألا يكون ذلك اتساقا مع منطق التطور فى ميدان العلوم والفنون .

وانما ينحصر دور احدهما أو كليهما فى رفع هذا الفن من العامية إلى الفصحى ، والتقاطه من الطبقات الدنيا إلى الطبقات المثقفة ، ولم يبق فيه مما يدل على نشأته الأولى سوى هذه الخرجة التي تكون بالعامية مرة أو باللاتينية أخرى ، ثم ما لبثت أن صارت إلى الفصحى نهائيا ، ولعل فى هذا تفسيرا للاولية التي يتحدث عنها ابن بسام وابن خلدون .

يقول صاحب معجم البلدان فى حديث له عن مدينة شلب الاندلسية الواقعة فى جنوبي البرتغال « سمعت من كثير من الناس أنه قلما تجد بين سكان هذه المدينة من لا يقرض الشعر او يتعاطى الادب ، فلو مررت بفلاح يسير وراء المحراث وسألته عن الشعر لنظم لك حالا فى الموضوع الذى تبتغيه » .

وغنى عن البيان أن هذا الفلاح الذى يسير وراء محراثه لم يكن ينظم الشعر فى لغة فصحى على نهج القصيد ، وانما كان ينظم فى العامية على نهج الموشح .

يصف المقدسي الجغرافى المشهور هذه اللغة — اعنى لهجة الاندلس — فيقول : « لغتهم عربية الا أنها لا تكاد تفهم ، وهى لاتشبه اللغات المذكورة فى الاقاليم الأخرى ، ولهم لغة ثانية قريبة من الرومية » .

بل لعلى لا أجافى منطق الاشياء اذا ذهبت إلى أن جماعة الغجر فى اسبانيا الذين يسمون اليوم « لس خيتانس » كان لهم أثر كبير فى هذه الموشحات الشعبية . انشاء وغناء وأنهم كانوا يقومون على تلحينها وأدائها قبل قدوم زرياب من المشرق .. وأن زرياب كان من العوامل التي ساعدت على تطور الموشحات من العامية إلى الفصحى ، لما له من التمرس بشعر المحدثين فى بغداد غناء وتلحينا .

واستانس لهذا الافتراض بنص يتحدث فيه ابن سناء الملك عن الخرجة فى كتابه « دار الطراز » فيقول « ويشترط فى الخرجة أن تكون رمادية زطية » .

وما هؤلاء الزط الذين يستحسن فى الخرجة خاصة ان تكون من معجم لهجتهم الا « لس خيتانس » غجر اسبانيا الذين مازالوا حتى هذه اللحظة يقومون على الفنون فى اسبانيا الحديثة ، ومازالوا محافظين على الطابع العربي فيها رقصا وغناء وموسيقى . وجماعة الزط قوم منكودو الحظ فى التاريخ ، لايكاد يضم جمهرتهم وطن ، وتنظر اليهم المجتمعات فى شيء من الارتياب الممزوج بالاستعلاء ومازال ينظر اليهم كذلك فى اسبانيا وغيرها ، حتى بابا الفاتيكان لم يكد يفتح لهم باب الاعتراف بقبولهم فى زمرة الكاثوليك إلا منذ سنوات معدودة .

وهذا ما جعلهم يجنحون فى حياتهم العملية إلى الفنون ، لانهم يجدون فى رحابها متنفسا عن مشاعرهم الكظيمة ..

ومن كان في مرية من هذا فليتأمل رقصاتهم التي تسمى « بالفلامنكو » فسيجد فى حركاتهم جموحا وهستيرية ، وليستمع إلى أغانيهم الحادة المعولة ، فسيلمس فيها حزنا متأبيا نافرا .

ولعل ذلك يفسر لنا السبب الحقيقي الذى جعل المصادر الاندلسية القديمة تزور عن فن التوشيح وتنظر اليه شزرا وترفع عن تدوينه حتى بعد أن صار إلى الفصحى . وما ذلك فيما يبدو لى الا لايثار هذا الفن لغة العامة فى التعبير ابان نشأته الاولى على لغة الخاصة . ثم لهذا المذاق الزطى الذى يكمن فيه ويكسبه ظرفا وحلاوة ، الا أنه وان كان شهيا من الوجهة الفنية ، لم يكن محترما من الوجهة الاجتماعية .

ألا ترى إلى صاحب الذخيرة بالرغم من اعترافه بما فى الموشحات من روعة وبراعة ، فيقول فى وصفها « تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب »

الا أنها لم تحظ لديه بالاحترام .. ويراها منقصة فى شاعر مثل عبادة بن ماء السماء فيقول عنه وعنها « واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته » .

ولذلك يتمحل ابن بسام الاعذار من عدم إدراجها فى ذخيرته فيقول : «وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب ... » .

ويهمل الفتح ابن خاقان تسجيلها فى كتابيه : « قلائد العقيان » و « مطمح الانفس » فى الوقت الذى يسوق فيه تراجم لشعراء عرفوا بها من أمثال ابن باجة وابن اللبانة .

ولكن الغريب حقاً الا يذكر ابن عبد ربه شيئا منها فى كتابه « العقد الفريد » مع أنه معدود فى أصحاب الموشحات ، من بل فيمن اخترعوا هذا الفن .

والاغرب من ذلك كله أن يجىء عبد الواحد المراكشي فى القرن السابع الهجري فيعتذر من عدم ذكر شىء من موشحات ابن زهر فى معرض الثناء عليه فيقول « فى لهجة لاتخلو من نبرة استعلاء ولولا أن العادة لم تجر بايراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض مابقى على خاطرى منها » .

ولماذا يأنف المؤرخ الطيب عبد الواحد المراكشى من تدوين الموشحات فى معجمه ... ؟

الجواب واضح عندى .. وهو لأن هذا الفن قد اصطنع اللغة العامية فى نشأته الأولى أو لأن اللغة العامية قد اصطنعته فى تلك النشأة ، وأن لجماعة الزط مزيد إختصاص به كما يقولون وذلك لاشتغالهم بالفنون التي مازالوا يشتغلون بها ويقومون عليها فى اسبانيا الحديثة ، وفى الاندلس منها بخاصة .

ولكن الغريب أن العلامة ابن خلدون يعلل لنشأة فن التوشيح فى مقدمته تعليلا بعيدا عن روح العلم حيث يقول : « وأما اهل الاندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنـــا سموه الموشح ينظمونه أسماطـــا واسماطا واغصانا واغصانا وأغصانا ، واستظرفه الناس وحمله الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه » .

ولقد كان الاولى بابن خلدون أن يربط هذا الفن بحاجة الشعب الاندلسي إلى التعبير عن وجدانه بلغته التي يقتدر عليها فى حياته العملية ، تمشيا مع منهجه العلمى فى الدراسات الاجتماعية .

فقد كان ظهور هذا الفن نوعا من الضرورة التي تقتضيها سنة الاجتماع .. لان لكل شعب فنه القولى مهما تكن قيمته التعبيرية .

ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك ، جعل ظهور هذا الفن نوعا من الترف الفنى . وإذا فقد كان المشرق أولى بذلك لانه أسبق من الاندلس فى ميدان الشعر إلى البديع والتنميق .

نحن مضطرون إلى مخالفة ابن خلدون ، فان الموشح فن شعبى ، كان لابد من ظهوره نشأ فى حجر الشعب ، وبلغة الشعب التي سبق أن وصفها العلامة المقدسى ، وأن بناء هذا الفن خارج على مألوف القصيد ، وأنه لم يدر فى حجر المحافظة الاندلسية التي كانت معلقة الهوى بأدب الفصحى ، وأنه كان أدنى إلى اذنى الشباب الذى يحب كل جديد ، وانه ألصق بمزاج الطبقات الشعبية التي كانت ومازال تسعى للتعبير عن همومها بطرائقها الخاصة فى الفن ، وأنه كان فى أول الامر يتغنى بعواطف عامة ساذجة تمتزج فيها دموع الناس ببسماتهم فى الطرقات والحقول والأسواق . ثم تسلل إلى أدب الفصحى شيئا فشيئا بعد تهذيبه وتشذيبه وتنقيته من العامية على أيدى شعراء القصيد .

ومن ثم احتضنته القصور بعد أن دار حولها طويلا قبل أن يؤذن له بالدخول . وهو فى كل هذه المراحل يصطحب خليله الغناء والموسيقى ما اتيح له ذلك .

فمقدم بن معافى القبرى او محمد بن محمود القبرى الضرير احدها او كلاهما يمثل فى رأيى مرحلة فى تطور الموشحات ، لعلها المرحلة الحاسمة التي انتقلت بها من العامية إلى الفصحى .. ولكن الخرجة بقيت فيها تحمل فى أمانة أسرار النشأة الأولى .

وغنى عن البيان أننا لا نستطيع أن نقدم أى نموذج من موشحات هذه المرحلة ، وربما كان الزجل الذى علا نجمه فى القرن الخامس الهجرى صورة مهذبة منها ، فاننا نتصور أن هذه الاغاني الشعبية لم تنقطع من الاندلس أبدا .. بل ظلت مشردة فى الاسواق والطرقات والحياة العاملة حتى تم الاعتراف بها على يد ابن قزمان وطبقته . وبذلك تكون قد سجلت انتصارين : الإنتصار الاول الاعتراف بها فى أدب الفصحى حينما قيض لها من التقطها من لغة الشارع ورفعها إلى لغة الثقافة . والانتصار الثاني حين قيض لها من يفرضها فرضا باللغة الدارجة نفسها . إن هذا الفرض وإن كان مفتقراً إلى الشاهد المعضد ، إلا انه لايبدو هزيلا،لانه لا يتعارض مع حقائق الحياة وسنن الاجتماع البشرى ، بل هى توثقه وتؤيده .

• ● •